أجود العطاء

من

فضل السماء

حدثنا ابن عربان قال:

«مكثت لدى أبي العيال أياماً سعيدة موفور الصحة هانىء البال. . .
أقضي ضحى الأيام بين وارف الظلال. . .
وفي الأمسيات أرتاد التلال تطل على المرابع الخضراء والحدائق الغناء. .
تختال في أرجائها الجداول. . . وتصدح على أفنانها البلابل. . .
وفي الليالي. . ، كانت جلستي على مصطبة الدار أروع الأطوار. .
نتمتع بالحديث يدور. . .
نترقب العشاء مع الطازج الأسمر من خبز التنور
زيت وزعتر. . ، أجبان وزيتون. . . ، جرجير وبصل أخر. . .
فول مطرز وبالتوابل معطر. . .
مقبلات ومتبلات مما تجود وتتفنن أم العيال في صنعه من الطيبات. . .

ننام مع الأنسام تحمل عطر الأرض وعبير الورد وأرق الأحلام. . .
لنصحو مع الإمام. . ، في فجر الصلاة. . ، نتمشى للجماعة. . ، والدروب على التلال من حولنا تقطر بأطياف الساعين المبكرين للصلاة. .

نؤوب مع تباشير الصباح وبوارد أشعة الشمس. . ، وعبير الندى على صفحة البيادر. . .
فنجد أم العيال وقد أعدت أكواب اللبن وأجفان القشدة والعسل مما تطرب له البطون وتنعم بمرآه الأجفان. . .

لعبت مع العيال ما شاء لي أن ألعب مستعيداً عهد الأماني العذاب وشقوة الشباب. . .
تسابق العيال في التطوع ليكون كل منهم لي دليلاً يقودني لأجمل الأركان من البستان. . .
أو ليطلعني على أحلى الزهور. . . ، أو يسقني من أعذب العيون. . . ، أو يأخذ بيدي ليقطف لي بواكير الثمر من قمم الشجر. . .

زارنا الجوار يرحبون بي لدى أبي العيال. . ، وزرنا بدورنا الجوار مع أبي العيال نحاط بالترحيب والإكرام ونلتقي بأطيب الناس الكرام

أناس ما فتئوا يشيدون بجهد أبي العيال الرائد. . .
الذي كان له فضل القدوة الحسنة في إعمار الأرض وإثراء الثرى والإهتداء إلى أول الخطا على الدرب. . . ، درب تحرير الإنسان من ذل الاستجداء وظلم المرابين. . .

وكان الحديث عن بطانة «المختار» يحتل جل ما يدور في جلساتنا من حوار. . .
الكل يحذر ويخشى من سعي الضابط الكبير وشريكه تاجر المعلبات ومفشي العمولات لإقناع المختار بسياسة إنتاج القطن بدل الحبوب والثمار. . .

تلك إذاً ـ كانوا يرددون ـ عودة للرغيف الأزرق. . ، للطوابير أمام الأفران تذل إنسانية الإنسان
عودة لتسول المعلبات والجري وراء المخلفات. . ، واللهاث خلف الحصص في الشوارع والطرقات
عودة إلى براثن المهربين. . . ، وأنياب تجار الأزمات. . .

محصول القطن يسلم لأعوان الضابط الكبير بأبخس الأثمان. . ، فلا يفي بتكاليف الحرث والزراعة. . ، فيهجر الناس الأرض ليتسكعوا أمام دور المختار

تطبع النقود لتوزع على المتسكعين. . . ، ترتفع الأسعار. . ، وتزداد الديون. . ، ويغنم التاجر الكبير والضابط الخطير. . ، وتفتقر الأوطان. . .

ذاك هو نتاج ما يرمي إليه الضابط الكبير وما يرجوه التاجر الأثير. . فهل يستجيب المختار. . .؟؟

هل تعود الأحوال إلى الوراء وتسير العجلة إلى الخلف. . ، بعد أن تنفس الناس الصعداء وغدت الديار تبشر بخير العمار والنماء. . ، بعد أن حلت على الأرض ـ بجهد الأبناء ـ بركة السماء. . .؟؟

كان الجوار، كل الجوار، ممن جلسنا إليهم مع أبي العيال لا يتصورون أن يقبل المختار باتخاذ مثل هذا القرار. . .

وأردف ابن عربان يقول:

«ولكن يبدو أن فأل أبي العيال والجوار لم يطل به الزمان. .
فما هي إلا أيام، حتى صدر القرار المشين بزراعة القطن الثمين بدلاً من الحبوب والثمار. . .
وفوق ذلك فقد نص القرار على مصادرة كل ما لدى أبي العيال والجوار من حبوب البذار لتستبدل ببذور القطن التي تم استيرادها من أجود أصناف الخارج بمعرفة التاجر الأثير والضابط الكبير
وكان على الزراع أن يدفعوا فارق الأثمان بين ما يصادر منهم من بذار الحبوب الرخيص وبذور القطن الغالي الثمين. . .!!

قال ابن عربان:

«ساد اللغط بين الناس. . ، وازدادت اللقاءات في الأمسيات. . ، وتشعبت الآراء في مواجهة ذلك القرار الحساس. .
وتساءل الناس عن سر قبول المختار إصدار مثل هذا القرار. . .
وتفننوا في وصف ما تعرض له من ضغوط من الداخل والخارج. . .
من الضابط الكبير وأعوانه. .
من التاجر الأثير وخلانه وشركاؤه من خارج الديار ممن اتفقت مصالحهم على ألا ينمو الصغار

شُكِّلَتْ الوفود من الجوار وأبي العيال للقاء المختار. . ، لكنها كانت تصطدم دائماً بحاجز الأعوان. . ، أعوان الضابط الكبير. . ، تساق في ردها مختلف الأعذار فلا تصل إلى المختار. . .

طغى الوجوم على وجوه القوم. . ، وارتفعت الأكف بالدعاء إلى الله العلي القدير أن يفرج الحال

واستمر الحال على هذا المنوال بانتظار اليوم الذي تنتهي فيه المهلة المحددة للزراع لتسليم ما لديهم من حبوب البذار. . .
وانتهى الأجل الموعود دون أن يتقدم من الزراع أحد يستبدل البذار ببذور القطن تنفيذاً للقرار. .

وأردف ابن عربان يقول:

«وما انقضت ساعات على انتصاف تلك الليلة التي انتهى فيها الأجل المرصود لاستبدال البذار بالبذور حتى شاهد الزراع في أوبتهم من صلاة الفجر جحافل الضابط الكبير والأعوان تزحف صوب البستان. .
بستان أبي العيال الذي يلي ساحة المختار على أول الطريق إلى حقول الجوار. . .
جحافل مدججة مبهرجة. . .، تنظر إلى الناس بازدراء. .، تقدح من عيونها الشرر. .، وتنذر حرابها بالخطر كل الخطر. . .

قال ابن عربان:
«وما كدت وأبو العيال نصل دار الطين تقابلنا أم العيال كالعادة بأجفان الفطار. . .، حتى علا حول البستان صخب الأعوان. . .

وانطلق صوت الضابط الكبير من باب البستان يأمر أبا العيال بالمثول لديه. . .

أسرع أبو العيال داخلاً الدار وهو يقول: أنا أعلم ما يريدون والله لن يكون لهم ذلك أبداً. . .
وخرج بعد ثوان مشرعاً بندقية صيد قديمة متجهاً نحو باب البستان. . .

صرخت أم العيال. .، ضربت الصدر ولطمت الخدود. .
وجرت تعترض أبا العيال وتقسم بألا يخرج للجنود حاملاً بندقية الصيد. .، واستجارت بي مستنجدة. .، فجريت صوب أبي العيال مقسماً عليه بكل عزيز وغالٍ ألا يخطو خطوة أخرى والبندقية في يده. .
نزعت البندقية من بين يديه وناولتها أم العيال لتعود بها لداخل الدار وتفرغ منها

ومن حولها كل الذخائر..
رجوت أبا العيال أن نذهب معاً لنرى ما وراء الضابط الكبير...

أمسكت بيد أبي العيال أمشي به صوب باب البستان وقد أخذ القرع على الباب يتواتر ويزداد صلفاً..، ويزداد ويرتفع معه نحيب أم العيال وبكاء الصغار...

قال ابن عربان:
«فتحت الباب وحاولت السلام على الضابط الكبير الذي تجاهل السلام وبادر إلى أبي العيال يأمره بالعودة إلى الدار وحمل كل ما لديه من بذار وحبوب وثمار إلى دار الحكومة في الحال...

أقسم أبو العيال بدوره ألا يحمل بذرة واحدة من الديار ما دام حياً..
وانفجر في وجه الضابط الكبير يكيل من مخزون غيظه وبأعلى صوته كل ما ألهمه الله من خطاب يكشف فيه حقيقة لعبة القطن والبذار...، ونوايا التاجر الكبير..، وما سيؤول إليه تنفيذ القرار من خراب الديار...
فما كان من الضابط الكبير إلا أن أمر الجند والأعوان بتكبيل أبي العيال وخفره..
فلما وقفت دونه ـ قال ابن عربان ـ ما أدر إلا وقد قيدت يداي خلف ظهري قبله ودفعني الجند إلى سيارة «الجيب» مخفوراً محشوراً..، وحشروا معي أبا العيال الذي كان ـ والدموع تطفر من عينيه ـ متجهاً إلى الله بالدعاء الحزين على الظلم والظالمين...

استقل الضابط الكبير السيارة منفوخاً منفوشاً وجلس في مقعدها الأمامي قرب السائق متوعداً أبا العيال بأشد وأقسى مآل...

قال ابن عربان:
«ولمحت ـ من نافذة السيارة ـ التاجر الكبير قابعاً في سيارته الفارهة ـ يرقب المشهد الحزين من بعيد شامتاً مستبشراً بالكسب الأكيد..

سارت بنا السيارة عدة أمتار حتى اقتربت من المنعطف الذي يشرف على ساحة

المختار.. فما ندر إلا وقد توقف السائق بها فجأة.. ملتفتاً إلى الضابط الكبير يستفسر صائحاً: سيدي.. ما هذا.. ماذا نفعل..؟؟

قال ابن عربان:

«كان أبو العيال مكباً إلى جانبي يلهج بدعاء يكاد يكون صامتاً لا يعي ما يدور حوله..، أما أنا فقد سنحت لي الفرصة لأرى من خلال زجاج السيارة الأمامي... الجوار ـ كل الجوار ـ من الزراع وقد تجمهروا يسدون الطريق أمام الضابط الكبير وركبه الخطير...

نساء وأطفال..، شيب وشبان...

وعلى رأسهم وقف إمام الجامع الكبير يداً بيد مع راعي الدير القريب.. وقد تكاتفوا وتراصوا فغدوا جداراً بشرياً لا سبيل لخرقه ولا أمل للولوج فيه..

انتفخت أوداج الضابط الكبير بسيل من الشتائم الكبار..

ولمحت ـ من بعيد ـ سيارة التاجر الكبير وقد آثر بها الفرار..

ترجل الضابط الكبير شاهراً كل سلاح..، متجهاً نحو الجمهرة صارخاً متوعداً بما يباح من الكلام والسباب وما لا يباح..

ما انبس الناس عن شفة..

وما تراجع القوم خطوة..

بل تقدموا يحيطون بالسيارة وما تلاها من رتل سيارات ومشاة الجنود والأعوان حتى غدا هؤلاء في طوق من الناس يحيط بهم من كل الجهات...

بدأ الجمع بالتكبير..، وأخذ الناس ينددون بالتاجر الأثير والضابط الكبير ويطالبون بلقاء المختار...

أطلق الضابط الكبير أعيرة النار فوق الرؤوس تهديداً... فازداد التكبير علواً والتنديد إصراراً ووعيداً..

وجه الجنود فوهات بنادقهم إلى صدور الناس فازداد طوق الناس ضغطاً واقتراباً من فوهات البنادق في تحد كنت تسمع معه لهاث أنفاس الجنود خلف السلاح

ودقات القلوب في الصدور تفصح عن مطلق القلق في تباشير ذاك الصباح...

وما زال الضابط الكبير يسب ويتوعد...

وفوهات البنادق ترتجف مصوبة لصدور الناس..، والناس يكبرون ويندون..، ويحدقون رويداً رويداً بالركب حتى كادت الأيدي تصل للبنادق..، والصدور تنفجر بمخزون الغضب..

ومرت لحظات بطيئة قاتلة..، كان التحدي فيها سافراً والمواجهة تقف على قيد حركة قد تؤول معها الأمور إلا ما لا يعلم إلا الله فداحته...

قال ابن عربان:

«ونحن في تلك الحال...

ما ندر إلا والصفوف تنفرج عن المختار محاطاً برجال المنطقة الكبار..

يتقدم بخطى ثابتة من الضابط الكبير..

وبدون كلام ينزع من يده السلاح...، يأمره بالعودة مع الجنود والأعوان إلى دار الحكومة في الحال...

ويأمر بالإفراج عن أبي العيال والعبد الفقير المظلوم الذي راح ـ بلا نوق ولا جمال ـ ضحية واقع الحال وصحبة أبي العيال...

وقف المختار على رأس القوم عيناه تلمع بظلال الدمع المكتوم ويده تربت على كتف أبي العيال ليقول:

«بارك الله جمعكم...، جمع الخلصاء...

بارك الله الحب والعطاء...

فبالحب تُحمى الديار ويصان المختار..

وبالعطاء تنمه الديار وتحل عليها بركة السماء لا بالمال ولا بالسلاح يحتمي السلطان...

حب الرعية حمى الحاكمين قبل الجنود والأعوان.. ودون الأرصدة تجمد خارج الأوطان..

بارك الله وقفتكم..، وقفة الإنسان الذي يعمر الأوطان «يحمي بالحب والعمار

الحاكم والمحكوم».

قال ابن عربان:

«عدنا إلى مصطبة الدار..

أبو العيال على أكتاف الجوار...

وزغرودة أم العيال تقابلها زغاريد الجارات من كل حدب وصوب..

وضحكات الدموع تشفي الضلوع..

وما مضت أيام إلا وكان تسريح الضابط الكبير ونفيه خارج الديار وكبار الأعوان والتاجر الأثير حديث كل الناس...

حدثنا ابن عربان قال:

«ودعت أم العيال والأطفال

وكذلك جمع الجوار الذي قدم للسلام علي قبل أن أغادر الجبال..

رجوت للجميع خالص الأمنيات في ظل بحبوحة الجد والعطاء..

استأمنتهم الحرص على التعاون والوفاء..

ووعدت بتجديد اللقاء في أيام مقبلة يقبل عليها فيها ـ بإذن الله ـ المزيد من السعد والهناء..

ودعت بستان أبي العيال وحقول الجوار وشريط من الذكريات يطوف في خيالي: بدءاً من حكايا الاستثمار مع برامج أبي الهول التي راح فيها ضحية الين والدولار ولعبة الكبار...

وانتهاءً بإعمار الديار على يد أبي العيال...

هنا مستقبل الأطفال..، عشت يا أبا العيال...

وأردف ابن عربان يقول:

«رجوت أبا العيال ـ ونحن في طريقنا إلى المطار ـ أن يجد لي في الجوار أرضاً ألجأ إليها عماراً ونماءً وذخراً لمستقبل نضمن فيه طعام الأطفال...

كانت التلال من حولنا في الطريق أكبر سعادة وإخضراراً.

والأزهار تبدو على الأغصان أزهى وأكبر حبوراً وانتشاراً..
وأعواد القمح تغني زاهية السنابل إخضلالاً وعنفواناً..
وعيون الماء تصدح نمنمة وغناءً

كان كل ما حولنا ـ في الطريق ـ يهتف بالبهجة والنماء...
سبحان الله
فكأنما حلت على الأرض بركة السماء...».

«تمت»